**دعوى ان التعليم الأزهري يصب في مصلحة الجماعات الراديكالية**

**من كتاب الغارة المشبوهة على التعليم الأزهري**

**تأليف دكتور محمد عمارة**

**أما الأزهر ــ الذى زعمت هذه الجهالات أن تعليمه لا يصب إلا في صالح الجماعات الراديكالية بحكم المرجعيات المشتركة بينهم وبينه10 ــ فلا أظنه الأزهر الذى عرفته الأمة على امتداد أكثر من ألف عام .. والذى نعرفه ــ كأكبر جامعات الشرق ــ في هذه الأيام...
لقد تعلم في الأزهر السيد/ عمر مكرم1168 – 1237هـ 1755 – 1822م الذى قاد علماء الأزهر في التصدي للحملة الفرنسية التي قادها بونابرت1769 – 1821م. على مصر سنة 1214هـ سنة 1798 م.. وإذا كان بونابرت قد دوخ أوروبا لسنوات طوال، فلقد أجبره علماء الأزهر ــ بالثورات الشعبية التي فجروها وقادوها ــ على الهروب من مصر بليل .. وأجبروا حملته العسكرية على الرحيل بعد عامين، رغم أنها قتلت 1/7 الشعب المصري – أي 300000 شهيد من شعب كان تعداده يومئذ أقل من3000000 نسمة!.
ولقد أرخت مصر بهزيمة بونابرت ليقظتها الحديثة ... وظلت الحركة الوطنية في بلادنا تدرس وتدرّس وتحتفل بثورات القاهرة ــ وكل مصر ــ التي قادها علماء الأزهر ــ ضد الحملة الفرنسية... بينما احتفل الذين يتهجمون الآن على الأزهر ــ مع فرنسا سنة 1998 م ــ مدة عامين، بمرور قرنين على غزو بونابرت لمصر!!.. فالأزهرــ والأمة والحركة الوطنية ــ يحتفلون بالاستقلال ... بينما الذين يتهجمون على الأزهر ــ من الفرانكفونيين والمتغربين وغلاة العلمانيين ــ يحتفلون بالاحتلال!!.
وعمر مكرم وعلماء الأزهر ــ الذين تربوا على المذهب الأشعري ــ هم الذين ــ بعد أن فرغوا من الاحتلال الفرنسي ــ أقاموا مجلس الشرع الذى قاد الأمة في الصراع ضد مظالم الوالي التركي ــ خورشيد باشا ــ، فأعلنوا عليه الحرب وحاصروه مع جنوده في القلعة ــ قلعة صلاح الدين ــ وقرروا ــ انطلاقا من الفهم الأشعري لسلطة الأمة ــ عزل هذا الوالي الظالم ــ الذى عينه السلطان ــ .. فلما كان يوم السبت 24 صفر سنة 1220 هـ - 24 مايو سنة 1805 م – دار الحوار بين مندوب الوالي وبين مجلس الشرع.. وقال مندوب الوالي:
كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم، وقد قال الله تعالى :
[أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ]النساء: 59
فأجابه السيد عمر مكرم ــ باسم علماء الأزهر ــ الذين تربوا على الفكر السياسي للمذهب الأشعري:ـ
أولو الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل. وهذا الوالي رجل ظالمة. ولقد جرت العادة من قديم الزمان، أن أهل البلد يعزلون الولاة، وحتى الخليفة والسلطان إذا ساروا فيها بالجور، فإنهم ــ أي أهل البلد ــ يعزلونه ويخلعونه. ولقد أفتى العلماء والقاضي بجواز قتالكم ومحاربتكم لأنكم عصاة11
وهكذا أعلن علماء الأزهر ــ الذين تربوا على الفكر السياسي للمذهب الأشعري ــ لأول مرة في تاريخنا الحديث، مبدأ أن الأمة هي مصدر السلطات.
ومن الأزهر خرج التجديد ــ ليس التجديد فقط للدراسات الأزهرية ــ وإنما التجديد للبلاد وللأمة ... فالشيخ حسن العطار1190 – 1250هـ 1776 – 1835م هو الذى نادى في الأمة : إن بلادنا لا بد أن تتغير، ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها..
ولم يكن الشيخ العطار مجرد فقيه .. وإنما كان مشاركًا في العديد من الفنون والعلوم.. من المنطق والفلسفة والأصول إلى العلوم الطبيعية ــ فقد كان يحسن عمل المزاول الليلية والنهارية.. وله رسالة فكيفية العمل بالإسطرلاب والربعين المقنطر والمجيب والبسائط .. ومشاركًا ومزاولا للفنون .. وهو صاحب الكلمات التى أحيت كلمات حجة الإسلام الغزالي، والتي قال فيها العطار : من لم يتأثر برقيق الأشعار، تتلى بلسان الأوتار، على شطوط الأنهار، في ظلال الأشجار، فذلك جلف الطبع حمار!..12
ومع توليه مشيخة الأزهر، فلقد أنشأ صحيفة الوقائع المصرية سنة 1246هـ سنة 1830م...
ولقد كان الرجل واعيا بالمنهاج الذى صلحت به الأمة في عصر ازدهارها.. منهاج الانفتاح على مختلف الحضارات، فأوصى تلميذه النجيب الشيخ رفاعة رافعالطهطاوى1216-1290هـ 1801 – 1873م أن يتدبر حضارة أوروبا، ويدون العلوم والفنون اللازمة لإيقاظ أمة الإسلام. ولقد تربى الطهطاوي في الأزهر ــ على المذهب
الأشعري ــ وأصبح إمام اليقظة الشرقية الحديثة، حتى لقد عده أمير الشعراء أحمد شوقى1285 – 1351هـ 1868 – 1932.[الأب الحقيقي للشعب المصري في المعارف والثقافات فقال ــ وهو يمدح ابنه:ـ
يا بن من أيقظت مصر معارفُه أبوك كان لأبناء البلاد أبا
ولأن الطهطاوي أشعري المذهب، ولأن إمامه، وإمام جمهور الأمة، هو أبو الحسن الأشعرى260 – 324 هـ، 874 – 936 م الذى قعد مبدأ التعددية والاختلاف في كتابه الفذ مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين.. فإن الطهطاوي عندما ذهب إلى باريس لم تدهشه الحضارة الأوربية ــ فيأخذها كلها .. ولم يتعصب ضدها فيرفضها كلها.. فهم كتابيون .. وهم[لَيْسُوا سَوَاءً] آل عمران: 113 .. ولذلك، ترجم الدستور الفرنسي، وزكى علوم التمدن المدني، التي هي مشترك إنساني عام، لا بد منها لعمران الواقع المادي، ولقد سبق لا وربا أن أخذتها من تراث الإسلام فدعا إلى الانفتاح عليها، والاستلهام لها.. أما ما لدى الفرنسيين من فلسفة وضعية لا دينية، تؤلّه العقل دون الشرع، فلقد انتقدها الطهطاوي، وحذر من الأخذ بها .. وفى ذلك قال: إن مخالطة الأغراب، لاسيما إذا كانوا من أولى الألباب، تجلب للأوطان المنافع العمومية.. والبلاد الإفرنجية مشحونة بأنواع المعارف والآداب التي لا ينكر إنسان أنها تجلب الأنس وتزين العمران. فهم يعرفون التوفير وتدبير المصارف حتى إنهم دونوه وجعلوه علما وهم يتعلقون بالحرية، حتى إنه لا تطول عندهم ولاية ملك جبار، ولا وزير اشتهر بينهم أنه تعدى مرة وجار..13.
لكن الطهطاوي رفض الفلسفة الوضعية اللاتينية التي سادت في النهضة الأوروبية، والتي تؤله العقل، ولا تقيم وزنا للشرع ــ فهو أشعري.. وامتداد لحجة الإسلام الغزالى الذى شبه العقل بالبصر، والشرع بالضياء، ومن ثم فلا قيمة لأحدهما بمعزل عن الآخر.. فالعقل مع الشرع نور على نور.. ولذلك رفض الطهطاوي هذه الفلسفة الوضعية، وقال: غير أن لهم في العلوم الحكمية حشوات ضلالية مخالفة ــ لسائر الكتب السماوية ــ إن كتب الفلسفة بأسرها محشوة بكثير من هذه البدع. وإنه ليس لنا أن نعتمد على ما يحسنه العقل أو يقبحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه.. وإن تحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشرع.. ولاعبرة بالنفوس القاصرة الذين حكَّموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التي ركنوا إليها تحسينا وتقبيحا14.
وعندما بدأ تسلل القانون الوضعي الفرنسي إلى مصر، على عهد الخديوي سعيد1237 – 1279هـ 1822 – 1863م عارضه الطهطاوي، مدافعا عن الشريعة الإسلامية وفقه معاملاتها، وداعيا إلى تقنينها والاحتكام إليها وحدها، وقال: إن المعاملات الفقهية لو انتظمت وجرى عليها العمل لما أخلت بالحقوق، بتوفيقها على الوقت والحالة.. ومن أمعن النظر في كتب الفقه الإسلامية ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية.. إن بحر الشريعة الغراء، على تفرع مشارعه، لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقي والري، ولم تخرج الأحكام السياسية عن المذاهب الشرعية، لأنها أصل، وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة الفرع15.
ولقد امتد المشروع التجديدي للطهطاوي وتلاميذه الأزهريين الأشعريين.. من اللغة.. إلى القانون.. إلى علوم التمدن المدني.. إلى إحياء التراث.. إلى ترجمة العلوم الطبيعية.. إلى الإدارة.. والشريعة.. وإحياء الآثار.. وحتى تحرير المرأة ــ الذى كان أول من اهتم بتعليمها وتحريرها..
هكذا تحدث الشيخ رفاعة ــ الأشعري ــ ابن الأزهر الشريف.
وكما خرج هذا المشروع التجديدي من الأزهر الشريف، فلقد علق صاحبه ورائده الآمال في تطويره وتفعيله وتعميمه على أبناء الأزهر الشريف، فقال: إن مدار سلوك جادة الرشاد والإصابة، منوط ــ بعد ولى الأمر ــ بأبناء الأزهر، الذين ينبغي أن يضيفوا إلى ما يجب عليهم من نشر السنة الشريفة، ورفع أعلام الشريعة المنيفة، معرفة سائر العلوم البشرية المدنية، التي لها مدخل في تقدم الوطنية16.
ولقد تحقق حلم الطهطاوي هذا على يد أعلام العلماء الذين سلكوا منهاج الإصلاح والتجديد لعلوم الدين والدنيا..
فالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده1266 – 1323هـ 1849 – 1905م ــ وهو المهندس الأول لفكر المدرسة الإصلاحية الحديثة ــ التي عملت من خلال الأمة بعد أن كان عمل الطهطاوي من خلال الدولة ــ قد درس في الأزهر، على المذهب الأشعري، وغدا إمام الأمة ومفتيها، الذى امتدت تأثيراته ــ عبر مجلة المنار ــ إلى مشارق العالم الإسلامي ومغاربه، فتكونت حول منهاجه جمعيات في إندونيسيا والهند، والمشرق العربي، وقامت على هذا المنهاج الحركات الإصلاحية في تونس والجزائر والمغرب ــ جمعية العلماء ــ بزعامة الإمام ابن باريس 1305 – 1359هـ 1887 – 1940م والإمام البشير الإبراهيمى1306 – 1385هـ 1889 – 1965م.. وفى المغرب بزعامة العلامة علال الفاسى1326 – 1394هـ 1908 – 1974م.. وفى تونس، على يد الشيخين: محمد الطاهر بن عاشور1296 – 1393هـ 1879 – 1973م ومحمد الفاضل بن عاشور1327 – 1390هـ 1909 – 1970م..
ولقد أقام الإمام محمد عبده منهاجه في التجديد على استلهام تراث الأمة في عصر ازدهار حضارتها، وليس على القطيعة مع هذا التراث.. وأعلن صراحة أن الأشعرية هي مذهبه ومذهب أستاذه جمال الدين الأفغانى1245 – 1314هـ 1838 – 1897م ومذهب جمعية العروة الوثقى ــ التي ضمت صفوة من العلماء ــ من الهند وحتى المغرب ــ فقال لمن أرسل إليه يسأله عن مذهبه ومذهب أستاذه ومذهب العروة الوثقى: إننا سنيون أشعريون أو ما تريدون. ونحن في أعمال العبادات دائرون على المذاهب الأربعة، فمنا المالكي والشافعي والحنبلي، وفى المعاملات على مذهب حاكم البلاد إن وافق واحد منها، فإن كان على غيرها توخينا عدم المرافعة إليه ما أمكننا17.
وأكد ذلك عندما تحدث عن علاقة تجديد الخلف بأصول السلف، فقال: يجب تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف هذه الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى.. والنظر إلى العقل باعتباره قوة من أفضل القوى الإنسانية، بل هو أفضلها على الحقيقة..
وكما انتقد أهل الجمود والتقليد لوقوفهم عند ظواهر الألفاظ، والتقيد بها، دون التفات إلى ما تفتضيه الأصول التي قام عليها الدين وإليها كانت الدعوة ولأجلها منحت النبوة، فلم يكونوا للعلم أولياء، ولا للمدنية أحباء18. انتقد، كذلك، المدنية الغربية.. مدنية الملك والسلطان ــالقوة ــ مدنية الذهب والفضة، مدنية الفخفخة والبهرج، مدنية ــ الختل والنفاق، وحاكمها الأعلى هو الجنيه عند قوم، والليرات عند قوم آخرين، ولا دخل للإنجيل في شيء من ذلك19.. تلك المدنية التي صقل أهلها المعادن ثم عجزوا عن صقل النفوس حتى يعود لها لمعانها الروحي.. وعجزوا ــ مع قوة العلم ــ عن كشف الطبيعة الإنسانية، واكتشاف الدواء، الذى هو الرجوع إلىالدين..20.
ولقد ركز الإمام محمد عبده الأنظار على الوسطية الإسلامية، التي هي فكرية المذهب الأشعري.. فلقد ظهر الإسلام لا روحيا مجردا، ولا جسديا جامدا، بل إنسانيا وسطا بين ذلك، آخذا من كلا القبيلتين بنصيب، فتوافر له من ملائمة الفطرة البشرية ما لم يتوافر لغيره، ولذلك سمى نفسه دين الفطرة، وعرف له ذلك خصومه اليوم، وعدوه المدرسة الأولى التي يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية21.
وهى الوسطية التي رفضت الكهانة والثيوقراطية، كما رفضت فصل الدين عن الدولة والقانون.. وقررت أن السلطة ــ في الإسلام ــ مدنية، وأن هذا الإسلام هو دين وشرع، فهو قد وضع حدودا، ورسم حقوقا، ولا تكتمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة لإقامة الحدود وتنفيذ حكم القاضي بالحق، وصون نظام الجماعة. فالإسلام لم يدع ما لقيصر لقيصر، بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ما له، ويأخذ على يده في عمله، فكان ــ الإسلام ــ كما لا للشخص، وألفة فى البيت، ونظاما للملك، امتازت به الأمم التي دخلت فيه عن سواها ممن لم يدخل فيه22.
كما أبرز الإمام محمد عبده سماحة الإسلام ــ التي رفع راياتها الأشعرية ــ أهل السنة والجماعة ــ برفض التكفير لمن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. فقال: إن الله لم يجعل للخليفة ــ ولا للقاضي ولا للمفتي ولا لشيخ الإسلام أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام.. ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعى حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه، أو ينازعه طريق نظره.. فليس في الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعوة إلى الخير والتنفير عن الشر، وهى سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم، كما خولها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم. وليس لمسلم مهما علا كعبه في الإسلام على آخر، مهما انحطت منزلته فيه، إلا حق النصيحة والإرشاد..
ولقد اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام دينهم أنه إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه، ويحتمل الإيمان من وجه واحد، حمل على الإيمان ولا يجوز حمله على الكفر23.**